المبحث الثاني

مفهوم الحوار

الاشتقاق والدلالة:

لعلّ أبرز ما يستوقفنا في دلالة لفظ « حوار » و« المحاورة » هو هذه المراجعة التي تحدث غالبا بين طرفين ، فينتقل الحديث والكلام من الأوّل إلى الثّاني ، ثمّ يعود إلى الأوّل وهكذا ، دون أن يكون بين هذين الطّرفين ما يدلّ بالضّرورة على وجوب الخصومة(١) ، فالحوار هو التردّد إمّا بالذّات وإمّا بالفكر ، وحار الماء في الغدير « تردّد » وحور الحور الرجوع عن الشّيء وإلى الشّيء صار إلى الشّيء وعنه حورا ومحتارا وحؤورا ، رجع عنه وإليه(٢) . وجاء في معجم « لاروس » الفرنسي: الحوار محادثة بين شخصين أو أكثر ، وغالبا شخصين(٣) . وعرّف كذلك بأنّه: موضوع مكتوب يتمّ فيه تمثيل محادثة بين شخصين أو أكثر ، أو مبادلة بين شخص وشيء آخر ، أو تبادل الآراء والأفكار(٤) .

وقد وردت مادّة المحاورة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع ، ويمكن أن تفهم على أنّها مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين ، على أنّ الحوار يرد في القرآن الكريم في مواطن كثيرة جدا ، وإن لم تستعمل مادّته نفسها ، وإنّما تستعمل كلمة ﴿قَالَ﴾ ،

---

(١) النّدوة العالمية للشباب الإسلامي: في أصول الحوار ، ص ١٢.

(٢) ابن منظور: لسان العرب ٤ / ٢١٧.

(٣) Grand Larousse : T 4-P 53.

(٤) New Collegiate Dictionary : P 314.

obeikandl.com

التي وردت في الكتاب العزيز سبعا وعشرين وخمسمائة مرّة[١] ، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[٣].

والحوار غير الجدل ، إذ هما يلتقيان في أنّهما حديث أو مناقشة بين طرفين ، لكنّهما يفترقان بعد ذلك ، إذ الجدل المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، أي اللّدد في الخصومة والقدرة عليها ، فهو المراء ، أي انتصار للنّفس ، أو رغبة في الاستعلاء أو مكابرة ومغالطة أو مناخرة أو مفاخرة أو سباب و مشاتمة ، وهو عمل مذموم ، والمراد به في الحديث : « **ما أوتي الجدل قوم إلاّ ضلّوا** »[٤] ، والمجادلة المناظرة والمخاصمة ، والمراد به في الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لا إظهار الحقّ ، فإنّ ذلك محمود لقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[٥]. والقرآن الكريم يستعمل الجدال في المواضع غير المرضي عنها أو

---

(١) في أصول الحوار ، ص ١٢.

(٢) سورة الكهف : الآيات ٣٤ - ٣٧.

(٣) سورة المجادلة : ١.

(٤) الجامع الصحيح للتّرمذي: ٥/ ٣٧٨، بلفظ: « ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه أوتوا الجدل» ، وقال: حسن صحيح.

(٥) سورة النّحل : ١٢٥.

غير المُجدية ، كقوله تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾[١] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾[٢]. وقد وردت دالّة على نفس المعنى في قرابة تسعة وعشرين موضعا ، وقد عنى القرآن الكريم عناية بالغة بالحوار ، لاعتباره الطّريق الأمثل للإقناع ، الذي هو أساس الإيمان النّابع من داخل الإنسان.

وقريب من الجدل مصطلح المحاجّة والتحاجّ ، فهي تطلق في اللّغة على التخاصم والجدال ، ويقال: رجل محجاج ، أي جدل ، بخلاف الحجّة التي هي البرهان ، والجدال قيل: ما دفع به الخصم ، وفي الحديث: « **فحجّ آدم موسى** »[٣]: أي غلبه بالحجّة. وقد وردت المحاجّة في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا ، ولم تمدح أبدا ، بل إمّا تذمّ وتستنكر ؛ لأنّها من صفات الكافرين ، أو يطلقها الكفّار على المؤمنين ، والسّبب في ذلك ؛ لأنّ المحاجّة ليست بالضّرورة استخدام البرهان الصحيح ، وإنّما ما يردّ به على الخصم ، وقد تكون الحجّة باطلة كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[٤] ، وقد تكون الحجّة صحيحة كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[٥] ، فالحجّة قد تُمدح

---

(١) سورة غافر : ٥.

(٢) سورة الحج : ٨.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع ، باب تحاجّ آدم وموسى عند الله ١١ / ٢٥٢ ، حديث (٦٦١٤) .

(٤) سورة الشورى : ١٦.

(٥) سورة الأنعام : ٨٦.

وقد تُذمّ ؛ وذلك لأنّها تطلق على البرهان الصحيح ، كما تطلق على الشبه الفاسدة كما سبق ، أمّا المحاجّة فهي دائما مذمومة في كلا الاستعمالين ؛ لأنّ الغاية منها إسكات الخصم ودفعه لا لبيان الحقّ ، فالمحاجّة والجدال والمخاصمة معاني متقاربة جدا ، وقد استعملها المفسّرون للدلالة على معنى المحاجّة[(١)] . وتتقارب المناظرة والحوار ، وإن كان أدلّ في الكلام ومراجعته ، كما أنّ المناظرة أدلّ في النّظر والتفكّر ، فالمناظرة عند ابن منظور: أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه .

وعامّة لقد عاشت هاتان الكلمتان ـ الحوار والجدال ـ في حياة الإنسان ووعيه ، منذ أن بدأ الإنسان يواجه الحياة الاجتماعية ، التي تختلف فيها الآراء وتتنوّع عندها الأفكار ، لتجسّد له المعنى الذي تنطلق فيه أفكاره في مجال العرض ، وفي ميادين الصراع. فقد يحدث له أن يتحرّك من أجل إعطاء فكرته صفة الوضوح ، التي تتمثّل في النفاذ إلى كلّ جانب من جوانبها ، لئلاّ تبقى هناك حاجة للاستفهام أو المعارضة النّاتجة عن خفاء بعض القضايا الملحّة ، وهنا يبرز الحوار الذّاتي تارة ، والحوار المشترك أخرى ، الذي يتدرّج في الفكر من نقطة إلى نقطة أخرى ، ومن مرحلة إلى مرحلة ثانية ، ليجمع في إطاره كلّ النقاط وكلّ المراحل ، وهذا ما نلتقي معه في كلمة الحوار.

وقد يحدث له في حالة أخرى ، أن يخوض الصراع من أجل فكرته ضدّ المعارضين له ، فيتحوّل الموقف إلى صِدام تتجاذبه حالة الكرّ والفرّ ، والهجوم

---

(١) خالد القاسم : الحوار مع أهل الكتاب: أسسه ومناهجه في الكتاب والسنّة ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك سعود ، كلية التّربية ١٩٩٢ ، ص ١١٢.

والدّفاع ، وتهيمن عليه أجواء التوتّر الفكري والنّفسي والكلامي ، من أجل الوصول إلى الغلبة ، إن كان هناك مجال للغلبة ، أو إلى التفاهم إن كان هناك سبيل إليه ، وهذا ما توحي به كلمة الجدل ، فهي توحي لنا بمعاني الحوار ، الذي يعيش في أجواء الخلاف الفكري والعقدي ، بينما توحي لنا الكلمة الأولى بأوسع من ذلك. وقد فضّلنا اختيار كلمة الحوار في موضوع البحث ، وإن كانت كلمة « الجدل » أوسع استعمالا في حديث القرآن وأسلوبه ، وذلك لأمرين:

الأوّل: أنّ كلمة الجدل أَخذت مدلولا جديدا ، يوحي بالطريقة التي يتّبعها المتناظران أو المتجادلان ، ليغرقا حديثهما أو مناظرتهما بالكلام العقيم ، الذي قد يقترب إلى الترف الذّهني ، بما يثيره من قضايا جانبية أو مناقشات لفظية ، تدفع بالفكرة المجرّدة إلى متاهات لا يعرف الإنسان منتهاها ومستقرّها ، ولعلّ السّبب في ذلك هو أنّ « الجدل » تحوّل إلى صناعة قد يقصدها الكثيرون لذاتها ، من أجل التدرّب على الأخذ والردّ ، والهجوم والدّفاع في مجالات الصّراع الفكري ، ليعطّل قوّة خصمه ، لا ليوصله إلى الحقيقة ، أو ليصل معه إلى قناعة.

الثّاني: أنّ كلمة حوار أوسع مدلولا من كلمة الجدل ، باعتبار تضمّن الكلمة الثّانية معنى الصّراع ، بينما نجد أنّ الكلمة الأولى تتّسع له ولغيره ، ممّا يراد منه إيضاح الفكرة بطريقة السّؤال والجواب ، الأمر الذي يجعله مفيدا لحديثنا بشكل أقوى وأشمل ، واستبعادا لكلّ خلفية تحسب كحكم مسبق قبل الوصول إلى نتائج البحث .

فالحوار مراجعة ومواجهة ، والمراجعة إنسانية ، وما دامت إنسانية فهي في المعنى عبر الكلمة المنطوقة أو المكتوبة ، وربما عبر إشارتها المعهودة لدى من لا

يحسن نطقها أو تناول قلمها. والحوار مواجهة بين من اختصوا بالوجه المعبّر، والوجه صفحة مرسلة ومستقبلة في آن معا. فالفم فيه مصدر معرفة مقولة ومرسلة، والأذن فيه طريق موصلة للفكر إلى مستقر الصّدر، وأما العين الباصرة فكفيلة بدعم الفم قائلا مرسلا، ودعم الأذن مستقبلة. والحوار فن في المراجعة والمواجهة، تراجع بينك وبين ذاتك، وتواجه الآخر بها راجعت وبها حوّرت في خلدك وداخلك، وهو على الكلمة يقوم، وقد غدا اليوم فنّا من الفنون المؤهّلة إلى درجة العلوم له قواعده ونظمه وأسسه[1].

الطابع الإسلامي للحوار:

إنّ الحوار والجدال لم يتحرّكا في الفكر الإسلامي ليكوّنا فقط فنّا قائما بذاته، يصنع للحياة الطّاقات الفكرية، القادرة على الدّخول في المناقشات الدّائرة في أيّ موضوع، وفي أيّ مجال، كما نراه في الطّريقة الفكرية التي أرادها أفلاطون للجدل، الذي يعتبر أنّ الصّورة الجدلية للمحاورات مقصودة لذاتها وهي في المقام الأوّل، وتأتي الرّغبة في الوصول إلى حلّ المشكلات الفلسفية في الدّرجة الثّانية من الأهميّة، بل نجد أنّ هدف الإسلام الأساسي من الحوار هو وصول النّاس إلى الحقّ، بالطّريقة التي تعمّق الإيمان في نفوسهم، وتشرح به صدورهم؛ ولذا فإنّ وسائله العملية تتّجه إلى هذا الهدف فحسب.

وقد نجد في القرآن الكريم ملامح هذا الخطّ الذي يتّجه إلى رفض الجدل، على أساس أن يكون فنّا قائما بذاته، يتحوّل به الإنسان إلى شخص جدلي، لا همّ له في

(1) محمود عكام: مقال: «الحوار الثقافي والحضاري في خدمة السلام»، مجلة الرابطة، تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، عدد (٤٦٨) يونيو ٢٠٠٥، ص ١٤.

obeikandi.com

المجال الفكري إلاّ أن يتغلّب على خصمه ؛ أو أن يلفّ ويدور لإشغال الفراغ بمجادلات تضيع الوقت وتبتعد عن الهدف ؛ لأنّ ذلك يساهم في تشويه الكيان الفكري للإنسان ، بما يثيره في طريقة تفكيره من الابتعاد عن القضايا البديهية في الحياة ، ليبقى مشدودا إلى الافتراضات البعيدة التي تغذّي الجدل وتحجب عن الإنسان رؤية الواقع[١].

إنّ الثقافة العربيّة والإسلامية لم تصل إلى ما وصلت إليه من قوّة وسموّ ، إلاّ بالمناظرات والمحاورات ، التي عُرِفت في المساجد والمجالس ، بين أهل الفقه والعقيدة والحديث والتّفسير ، أهل اللّغة والنّحو والأدب ، وأهل العلوم الطبيعية...وفي هذا الجوّ الحواري المرن المتسامح ازدهرت الحضارة ، عندما كان الطّالب يتنقّل بين الحِلق العلمية في المسجد الواحد[٢] ، والواقع أنّنا أمّة شرّفنا الله بحمل الرّسالة المحمّدية ، فكان لزاما علينا أن نوصلها إلى جميع البشر في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولهذا قد نلجأ إلى الدّخول في الحوار مع غيرنا للتّعريف بهذا الدّين ومحاولة شرحه للآخرين ، وهذا يتطلّب أفضل السّبل وأجداها في طرق الحوار[٣].

أدب الحوار:

نقول : أدب الحوار وضوابطه ، والمقصود بذلك القوانين المتعلّقة بعملية الحوار ، بداية من تحديد الهدف ، مرورا بتداول النّقاش وأخلاقيّاته ، وصولا إلى

(١) محمّد حسين فضل الله: الحوار في القرآن: قواعده، أساليبه، معطياته ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، طبعة ٥ / ١٩٨٧ ، ص ١٥ (بتصرّف).

(٢) عبد الله الحامد: الحوار: لماذا؟ وكيف؟ مجلّة الفيصل ، سنة ١٩٩٥، عدد (٢٢٣) ، ص ٦.

(٣) سفر بن عبد الله البشير: أسس الحوار وأركانه ، نفس المصدر السّابق ، ص ١٠.

الهدف الذي نبتغي إدراكه. وتطلق كلمة أدب ، ويقصد بها الضوابط العامّة أو القوانين الضّامنة لسير الحوار ، ولكنّها في الأصل تستبطن معاني أخلاقيّة راقية ، تُلقي على العمليّة الحوارية جوّا من الرصانة ومسحة الأدب ، وتضفي عليه الصّبغة العلميّة والأكاديمية ، فيجلب احترام النّاس ، ويحكم اهتمامه ، وبذلك فقط يُكتب النجاح لإدارة حوار هادف ؛ لذلك عادة عند محاولة تحديد ضوابط الحوار يُذكر: الهدف ومعرفة الطّرف الثّاني ، من حيث الاتّفاق والافتراق في البنية الثقافية أو البيئيّة ، وذلك يساعد في تحديد الوسيلة لإدارة حوار ناجح ، وكذلك ضرورة تحديد الموضوع ؛ لأنّه غير منطقي أن يُعلن على إقامة حوار لم يحدَّد موضوعه بعد. وعامّة يدور الموضوع حول:

- ما ينفع النّاس.

- في ما هو من المصالح المرسلة ، أي ليس ما هوّ قطعي نُصّ عليه صراحة.

- في ما يمتلك فيه المتحاوران الأهليّة الكافية للتّحاور ، وما يتّصل بذلك من تحليل وعرض ونقد...

وقد ذكر طاش كبرى زادة في « الرّسالة في علم المناظرة » أهمّ النّقاط في أدب الحوار ، تؤكّد على أنّه ينبغي للمناظر أن يحترز عن:

- الإيجاز والاختصار المخلّ بالفهم.

- الإطناب المملّ.

- استعمال الألفاظ الغريبة العسيرة الفهم.

- استعمال لفظ مجمل بلا تقييد يدلّ على المعنى المقصود ، ولا بأس في هذه الحالة من استفسار « الخصم » عن اللّفظ المجمل الذي أورده.

ـ الدّخل في كلام الخصم قبل الفهم ، ولا بأس بطلب الإعادة لاعتبارها أبين للجدّ في المتابعة ، وأفضل من تحميل صاحب الكلام ما لم يقل.

ـ التعرّض لما لا دخل لهُ في المقصود ، لئلاّ ينتشر الكلام ويبتعد عن المقصود ، وعدم التفريع هروبا من الإقرار بسلامة حجّة المحاور.

ـ الضّحك ورفع الصّوت أثناء المناظرة ، وكلّ ما يدلّ على السفاهة ؛ لأنّها من أوصاف الجهّال ، يسترون بذلك جهلهم.

ـ تحقير الخصم ؛ لأنّه ربّما يؤدّي إلى صدور الكلام الضعيف عن المناظر ، فيكون سببا لغلبة الخصم الضعيف عليه.

وروي عن الإمام الشّافعي ـ رحمة الله عليه ـ أنّه قال: « ما ناظرت أحدا فأنكر الحجّة إلاّ سقط من عيني ، ولا قبلها إلاّ قبلته ، ولا كانت الحجّة معه إلاّ رجعت إليه »[1] ، ممّا يعني عدم تعصّب أيّ من المتحاورين لوجهة نظره ، واستعداده للبحث عن الحقيقة والأخذ بها ، وقد وجّه القرآن الكريم إلى ذلك ، إذ وجّه المؤمنين إلى أسلوب الحوار ، فقال لهم قولوا: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[2] ، وهذا في غاية التخلّي عن التعصّب لأمر سابق ، وإعلان تامّ عن الرّغبة بنشدان الحقيقة أينما كانت .

ـ على المحاور أن يجعل مشاركته في الحوار متّسقة مع الواقع ، ومع عناصر الحجّة التي يتبنّاها ، وبالتّالي على المتحاور أن يكون على دراية علمية بعناصر إقامة الحجج ، وهذا أمر يحتاج إلى التدبّر والممارسة .

---

(١) زيد بن محسن الحسين: الحوار عبر المخطوطات ، نفس المصدر السّابق ص ٣٤.

(٢) سورة سبأ : ٢٤.

ـ على المحاور أن يدرك طبيعة الموقف وطبيعة المتحاورين، ويتعامل مع الوقائع وأولويّاتها[١].

إنّ ضوابط الحوار التي عرضناها بما هي آداب عامّة مطلوبة حتّى في المعاملات اليومية بين النّاس، ليست بالشّروط التّوقيفيّة النهائيّة، وإنّما جائز أن توجد مبادئ أخرى تبحث في نفس الإطار، تستهدف إنجاح المحاورة للوصول إلى نتائج مقبولة من كلّ الأطراف بدون إكراه، في جوّ من القناعة والتّسليم نسبة لقوّة حجّة الطّرف المقابل، في ما هوّ مأذون فيه من الشّارع طبعا ـ بالنّسبة لنا كمسلمين ـ لأنّ من النّاس من هو ألحن في القول، وله قدرة على التّوليد اللّفظي وشدّ النّاس إلى حديثه، فيكتسب بذلك طابع الصّدق والمحاجة، فيؤثّر في سامعه ولربّما وجّه اهتمامه ومعتقده في قضيّة ما.

*****

(١) حسن وجيه: الحوار: الضوابط وأوجه الخلل، نفس المصدر السّابق، ص ٢٤.